



التنبية إلى حقيقة استخلاف الإنسان والتذكير بنود أماناته

الدكتور إدريس ابن الضاوية

التنبية إلى حقيقة استخلاف الإنسان والتذكير ببنود أماناته

إن أحق ما ينبغي أن ينصح به لعموم الناس في هذا الوقت العصيب، المتأثر بفعل هذا الفيروس العجيب، الذي أعيا المعجزين، وأنقض ظهر كل المتعالمين، تنبيههم إلى حقيقة استخلافهم، وتذكيرهم ببنود أماناتهم، مقرين على أنفسهم بالوفاء بمقتضاها، ومشهدين المَلَك على القيام بمعناها، المتناسب مع وسعهم، والمنسجم مع ذرعهم، ضمانا لحسن القَدْر، وطيب الأجر، ورجاء سَنِي الدُّخْرِ ساعة الحشر.

وقد نص الله تعالى على هذه المُعْطِيَات المُبْصِرَات في الآيات المحكمات في مثل قوله سبحانه: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) [الأحزاب: 72 - 73].

إذ بينت هاتان الآيتان أن الله تعالى في مبدأ تكوين الخلق وتكريم الإنسان بالسبق، عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين حملها لتبعاتها، وقبلها الإنسان لحاظا للذائذها ومَسَارِّهَا ملتزما الوفاء بمقتضياتها، مدعيا إطاقتها بلوازمها، ظنا منه استحقاق السعادة بها في الدنيا ، وزعما منه ضمان نعيم الدار الأخرى.

وأجاز العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله، أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه، وذلك أن الإنسان مدني بالطبع مخالط لبني جنسه فهو لا يخلو عن انتمان أو أمانة فكان الإنسان متحملاً لصفة الأمانة

بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث: «إذا ضيَّعت الأمانة فانتظر الساعة» أي إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة ، فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة مثل تكوير الشمس وانكدار النجوم ودكّ الجبال 1.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم عظم حرج المضيع للأمانة يوم القيامة، وخطر أثرها على مصيره في قول عبد الله بن مسعود: "...يؤتى بالعبد يوم القيامة،... فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي ربّ، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، ويمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الأبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأعظم ذلك الودائع " فأنتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا " قال، كذا قال، صدق أما سمعت يقول الله: (إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها). [النساء: 58] 2.

إن أظهر الحقوق الواجبة بالذمة بأصل كرامة الإيجاد والتسخير والتكريم، وأولى العهود اللازمة بفضيلة التكليف والتعمير والتعليم، أداء حق أكرُومة الاستخلاف، بصدق إيجاف بلا اختلاف، الذي يقتضي إفراد الله تعالى بالعبودية الخالصة المُخلَّقة، وتخصيصه بالسيادة على الأكوان المُسَخَّرَة، وتخصيصه بالمحبة المستحقة المُطَهَّرَة، التي تحول دون درك الشقاء، وتعصم من تأثيرات مقولات الأهواء وتضعف الانجذاب إلى متع هذه الحياة الحلوة الخضرة الأفنان، وتقوي التحقق بالمكارم التي يستجلب بها الرضوان، ويقوم عليها أصل شعبة الإحسان في الاعتقاد الحسن والعمل الجَلَل، المجلى في المحبة والتواضع ودفع

¹ التحرير والتنوير 128/22

² شعب الإيمان 207/7

العلل، ثم في إنصاف الموجودات بإعطائها حقها في وجودها، وأمنها وهناء عيشها، وإقامة العدل فيها بحسن استثمارها واستغلالها، استغلالاً يراعي مشروعية الكسب، واعتدال البذل، والتنزه عن الشح الغلّ، والإسراف البطل، الملاحظ للمقاصد الكلية، والمراعي للمصلحة الشرعية، التي جعلها الله تعالى من مقومات دينه الحنيف، ونصبها دليلاً على كمال شرعه المنيف.

إن مقتضى سيادة الإنسان على سائر الأكوان المنضبطة بالوحي على مر الأزمان مراعاة حق الائتمان بصحيح البرهان، والاستسلام له بكل إذعان، بحسن التجرد له، وكمال التعلق به، المصدق بحصر الحاجات في خزائنه، والفرع إلى بره وعفوه والمسارعة إلى مواقع رضوانه، والصدق في الانتساب لدينه، والتخلق بأخلاق نبيه خيرته من خلقه، والالتجاء إليه التماساً لعطيته، والالتذاذ بذكره بأسمائه، والبر له بجميع خلقه، والطمع في كمال عفوه ورحمته، والرضا بقضائه وقدره وقسمته، والطاعة في المعروف لأولياء أمره، والسعي الحثيث في خدمة الأمر الجميع.

إن من يخضع في مثل هذه الظروف لغير الله تعالى، ويعتقد أنه يقدر على ما شاءه، أو منازعته فيما يختص به أسقط فضل التكريم عن نفسه، وأضاع التشريف عن ذاته، فصار عديم الذوق، لنيم الطبع، ميت الحس، متلبساً بالرجس، مشتهراً بالألس³، راجعاً بكل نحس، لإخطاء رجاء توقيره، وركوبه المفسدات بدواعي نفسه، كالجهل، والهوى، والتعصب، وما شابه ذلك من سوء التَّكسُّب، فيكون قد تنازل عن سيادته، وتراجع عن جمع أسباب إخلاصه في توحيد خالقه، وصار عبداً لما خضع له من لذائذ عاجلته، أو ما شابه ذلك مما تتعلق به أنظار الشاردين على الله شراد البعير عن أهله.

ولهذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ

³ للألس: الكذب. والمألوس: الضعيف البخيل، شبه المخبل. العين للخليل بن أحمد

بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع⁴.

وقد أبان عن قدر هذه السيادة التي لا تتحقق إلا بالتوحيد - اعتقادا وعبادة وخلقا - بين سائر المقامات الأساسية الضابطة للكدر المشروع الموصل إلى الله تعالى، والسعي الممدوح الأزكى أفعالا، الذي لا يَسْتَزِلُّه جذب الشواغل الفاتنة، ولا تؤثر فيه الأهواء البائنة، الإمام الجنيد بن محمد البغدادي رحمه الله تعالى عندما سئل: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله؟ فقال في مجوبه: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وذكر الله تعالى على اختلاف الأوقات، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل. قيل له: فبماذا يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد⁵.

وأجل جنى نجتنيه بهذا الإدراك البرهاني اليقيني، لحقيقة التوحيد العملي والعلمي، في تديننا الجماعي الأصيل، وتعبُّدنا الموحد الأثيل، المؤسس في هذا البلد العزيز على ثوابتنا الدينية، والمنضبط بمحكم اختياراتنا الشرعية، الموحد لكيفياتنا التعبدية، أن نبرأ من أنانيتنا، وأن نتقي الله في كسبنا وأن نعتدل في بذلنا، وأن نتعبد في مالنا، وأن نحسن في اكتسابنا، وأن نجود بالأحب إلينا، وأن نكف الأذى من حوالينا، وأن نصدق في حديثنا، أن نَعْفَ في طُعْمَتنا، وأن نفي بائتماننا، وأن نضبط من ألسنتنا، وأن نصون الجوارح عن كل ما يقبح من تصرفاتنا، إعمالا لقوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشرفه وكرمه وعظم: "اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم،

⁴ البخاري برقم 2673

⁵ روح البيان 39/2

وأدوا إذا أوتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم⁶.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه تذكرة لأحبائه من أبناء أمته على اختلاف اختياراتهم
وانتماءاتهم وتباين الجزئيات من اجتهاداتهم

الدكتور إدريس ابن الضاوية

العرائش 7 - 4 - 2020

⁶ أحمد 714/37، وابن حبان في صحيحه 506/1، والحاكم في المستدرک 339/4، والبيهقي في شعب الإيمان 450/6. عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.